فن التوقيعات في كتاب ابي حيان التوحيدي (البصائر والذخائر)

م .م محمد صائب خضير
قسم اللغة العربية
كلية التربية / ابن رشد

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . فن التوقيع فن امتاز به الخلفاء والأمراء في الأدب العربي وبلغ قمة ازدهاره وتطوره في العصر العباسي ، فكان من الطبيعي أن يهتم به عالم فذ اشتهر بالتأ ليف والكتابة في عصره هو أبو حيان التوحيدي ، ومن خلال قراءتي لمؤلفات التوحيدي وجدته قد اهتم بالتوقيعات في كتابه الموسوعي البصائر والذخائر ؛ ولذلك آثرت دراسة الجوانب الفنية التي امتازت بها التوقيعات التي نقلها التوحيدي لنا ، فحظيت لذلك بإهتمامه ، وقد ركزت في دراستي على فنون علم البديع ؛ لأنها أكثرعلوم البلاغة حضورا ووضوحا في التوقيعات التي ذكرها في كتابه أبدأ اولا بذكر نبذة قصيرة عن التوقيعات تعريفا وتاريخا لتكون مدخلا لبحثي .

التوقيع لغة :-

مأخوذ من توقيع الدّبر ظهر البعير ، فكأن الموقع في الكتاب يؤثر في الأمر الذي كتب الكتاب فيه ما يؤكده ويوجبه ، فسمي توقيعا ؛ لأنه تأثير في

الكتاب حسًا ، أو في الأمر معنى ، او من الوقوع ؛ لأنه سبب لوقوع الأمر المذكور ، أو لأنه إيقاع لذلك المكتوب في الكتاب ، فتوقيع كذا بمعنى إيقاعه (1).

وقيل هو مشتق من التوقيع الذي هو مخالفة الثاني للأول (2) .

أما التوقيع في الاصطلاح فهو : إلحاق شيء فيه بعد الفراغ منه ، ونجد صاحب اللسان قد أورد له تعريفا اصطلاحيا آخر عندما قال : توقيع الكاتب في الكتاب المكتوب أن يجمل بين تضاعيف سطوره مقاصد الحاجة ، ويحذف الفضول (3) .

أما صاحب التاج فرأى أن التوقيع يكون بعد الفراغ من الكتاب وهو شيء يلحق به بعد الفراغ منه .أو هو إلحاق شيء بالكتاب بعد الفراغ منه لمن رفع إليه كالسلطان ونحوه من ولاة الأمر ، كما إذا رفعت الى السلطان أو الوالي شكاه ، فكتب تحت الكتاب ، أو على ظهر : ينظر في أمر هذا ، ويستوفي لهذا حقه . وبناء على ماسبق كان التوقيع مختصا حصرا بعلية القوم كالسلاطين والولاة ، ولعل جعفر بن يحيى البرمكي أكثر ولاة الامر الذين ورد ذكرهم مرافقا مع ذكر التوقيعات ومن أشهر توقيعاته ماكتب على ظهر كتاب رفع إليه " ياهذا ، قد قلَ شاكروك ، وكثر شاكوك ، فإما عدلت ، وإلا اعتزلت " والصاحب بن عباد الذي كتب إليه شخص ما: أن إنسانا هلك وترك يتيما وأموالا جليلة لاتصلح لليتيم أراد إغراءه بأخذها ، فوقع الصاحب قائلا : " الهالك رحمه الله ، واليتيم أصلحه الله ، والمال أثمره الله ، والساعي لعنه الله " (4) .

وقد تكون التوقيعات شعرا وأورد صاحب التاج انموذجا على ذلك واصفا إياه أنه من أحسن ما رأى في التوقيعات .

يـا مليكـا لو وزنـا نعله بجميع الخلق طُرَاً وَزَنتْ

إنّ من غاب عن الإلف زنى بعد طـول المكث عنهـا

ولم يكتب قافية البيت الثاني ، فوّقع المؤيد (وزنت) رحمه الله ، فدّل ذلك على جودة فهمه (5) .

وقد أجمل صاحب التاج نشأة فن التوقيعات قائلا : " زعم كثير من علماء الأدب ، وأئمة اللسان : أنّ التوقيع من الكلام الإسلامي ، وأن العرب

لاتعرفه ، وقد صنف فيه جماعة ، لاسيما أهل الأندلس ، وكلامهم ظاهر في أنه غير عربي قديم وأن كان مأخوذا من المعاني العربية "(6) .

التوقيع في الاصطلاح :-

عرف فن التوقيع العلماء العرب ومن هولاء ابن خلدون قائلا: " من خطط الكتابة التوقيع ، وهو أن يجلس الكا تب بين يدي السلطان في مجلس حكمه وفضله ، ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها ، والفصل فيها ، متلقاه من السلطان بأوجزلفظ وأبلغه ، فإ ما أن تصدر كذلك ، وإما أن يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصّة ،ويحتاج الموقع الى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه ، وقد كان جعفر بن يحيى يوقع القصص بين يدي الرشيد ، ويرمي بالقصّة الى صاحبها ، فكانت توقيعاته يتنا فس البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على أسباب البلاغة وفنونها ، حتى قيل : إنها كانت تباع كل قصّة منها بد ينار وهكذا كان شأن الدول " (7) .

وبناء على ماسبق يكون التوقيع على نوعين :-

الاول :- أن يوقع الكاتب على الرسالة نفسها ، أي على الورقة نفسها التي يحملها إليه صاحبها .

الثاني : أن يكتب الكاتب على ورقة أخرى على مثالها في سجل آخر .

ويحتاج الموقع الى بلاغة القول وتمكنه من اللغة ، بل نجد الخلفاء والأمراء يفضلون التوقيع على إطالة الكلام . كان جعفر بن يحيى يقول لكتّابه : " إن قدرتم أن تجعلوا كتبكم توقيعات فافعلوا " (8) .

فن التوقيعات جزء من فن الكتابة :

لو أردنا تتبع التطور الطبيعي لفن الكتابة لوجودنا أن العصر الجاهلي عهد ترسل وإنشاء ، ولكن الإسلام عندما جاء بسلطانه ورث العالم المتحضر في فارس والروم ، فقد راسل الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم الملوك وذوي الرياسات إيذانا برسالته ، وطلبا لاجابته برسائل شتى ، وسار خلفاؤه من بعد على خطاه ، ولما انقضت حقبة صدر الإسلام ، وجاء العهد الاموي ورث ذلك النوع من الكتابة وسار فيه بلغاؤه كما سار من سبقوهم ، وفيما بعد انشئت الدواوين التي حولت الى العربية ، وجعل لكل عمل من أعمال الدولة ديوان على شبه من النسق المعروف الآن في

الوزارات مما أدى الى تشعب أنواع الرسائل وكثرة في صادرها وواردها فعجز الخلفاء على أن يلوا أمورها بأنفسهم ، وأنتج كل هذا خلقا لديوان جديد بإزاء هذه الدواوين هو ديوان الرسائل ، وقد كان يعهد به الى كل ذي مكانة في الكتابة ، وكان يعرف بصاحب ديوان الرسائل (9) ، فالتوقيعات وهي جزء من فن الكتابة كانت معروفة منذ عصر الخلفاء الراشدين واتسعت في العصر العباسي اتساعا جعلها خاصة من خصائص هذا العصر (10) . فهي " جمل قصار مقتبسة أو منشأة كان الخلفاء خاصة يوقعون بها (ومن هنا جاء اسمها) في آخر القصص (الرقاع والأوراق) التي تعرض عليهم ، وفيها اقتراح بعمل ، أو طلب من محتاج ، أو حكم من قضاء أو مبلغ من الما ل للصرف والإنفاق " (11) .

قيمة التوقيعات الفنية :

التوقيعات فن نثري وهو من النثر الفني الذي يرتفع فيه أصحابه الى لغة فيها فن ومهارة وبلاغة ، وهذا الضرب الذي يهتم النقاد في اللغات المختلفة ببحثه ، ودرسه ، وبيان مامرّ به من أحداث وأطوار ، وما يمتاز به في كل طور من صفات وخصائص ، وهو على قسمين كبيرين هما : الخطابة والكتابة ، وما يهمنا هو الكتابة .(12) .

وقد حاولت البحث عن أصل التوقيعات في الأدب العربي فبدأت بالعصر الجاهلي الذي لم تكن الكتابة فيه تؤدي بجانبه أغراضها السياسية والتجارية أغراضا أدبية ، او فنية من تجويد او تحبير ، إذ لم تكن أكثر من كتابة ساذجة أدت أغراضا خاصة في عصرها ، وانتهت بفانتهاء هذا الغرض . وكذلك هي الحال في العصر الإسلامي والأموي ، فقد كان الاهتمام منصبا على القصص والخطابة والرسائل فلا وجود لفن التوقيعات فيها .

وأرى أن السبب الرئيس الممهد لظهورالتوقيعات في العصر العباسي فيما بعد هو ميل العرب في شعرهم ونثرهم الى الايجاز ، وقد بقيت الحال على ماهي عليه في الشعر ، بينما حلت محل الايجار ظاهرة معاكسة في النثر ، فقد راحوا يبسطون آراءهم السياسية ، ويفصلون في معانيها ضروبا مختلفة معتمدين على السجع .(14) .

وبدأنا نجد ذكر التوقيعات في العصر العباسي بعد أن بدأ في الدولة العباسية أنشاء الدواويين. وقد اعتنى الكتاب بكتاباتهم وهذه العناية وفرت لهم أسباب النجاح في حياتهم، وظهر أثر التصنع في الكتابة، و كان من مظاهره فن (التوقيعات) (15).

وبناء على ماسبق أقول كان ظهور التوقيعات ظاهرة غير مألوفة تثير الاهتمام، لأسباب عديدة :-

- إن الاتجاه السائد في النثر هو الاطناب فكان ظهور الايجاز أمرا لافتا للنظر .
- ظهرت التوقيعات بشكل راقٍ ، لكونها فناً يخص الخلفاء والأمراء فقط .
- كانت التوقيعات تكتب معتمدة على السجع الذي يمنح الكلام موسيقى تلفت اهتمام السامع ، ولهذا كان " أسلوبا للوعاظ المحترفين الذين صاروا يصوغونها صياغة فنية محكمة ، ومن هنا انتقل السجع في أثناء القرن الرابع الى دائرة الأدب أيضا ، فظهر في كتابة الرسائل ، وفي أدب االمقامات " (16) .

وفي التوقيعات دلالة واضحة على ذكاء المثقف العربي ، وإلمامه بمعارف عصره ، من ذلك ماحكي عن أن عاملا للسيدة زبيدة على بعض ضياعها كتب لها في رسالة (وأدام كرامتك) فغضبت منه ، وبالغت في تعنيفه ، ووقعت له على ظهر الكتاب بقولها (أصلح خطأك ، وإلا صرفناك عن عملك ، فأعاد النظر في كتابه ليتحسس فيه خللا ، فلم يجد شيئا ، فلما عرضه على بعض إخوانه أرشده الى موضع المؤاخذة ، وأعلمه أن قوله (أدام الله كرامتك) هي جريمته لديها ؛ لأن كرامة الإنسان في دفنه ، ولاسيما البنات فلما فهم ذلك اعاد الكتاب إليها وليس فيه هذه الجملة فكتبت على ظهر خطابه : (أحسنت ولاتعد) (17) .

وبناء على ماسبق كانت الوقيعات واحدة من الفنون المهمة التي عني بها التوحيدي في كتابه (البصائر والذخائر) .

مميزات التوقيعات التي وردت عند التوحيدي :

- كانت ردا على رسالة ، فلا نجد توقيعا إلا على رسالة أو قصّة ، مثال ذلك : " ووقع المنصور في قصّة رجل ذكر أنّ أمير المؤمنين أمر بأرزاقٍ

، وأنّ الفضل أبطأ بها : (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها) (18) ." .(19) .

- تتميز التوقيعات بأنها تعتمد على القرآن الكريم وما في آياته الكريمات من ايجاز رائع يخلب لب السامع ، مثال ذلك : " كتب عمرو بن العاص الى معاوية يسأله أن يعطي عبد الله بن كريب نهر معقل فإنه قد سأله ، فوقع : (قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين) (20)" (21) .

- يمتاز التوقيع بالاختصار الشديد ، وكلما كان أقل ألفاظا كان أروع وقعا في النفس ، وقع الفضل ذو الرياستين قائلا : " كن بالباب بأنك الجواب " (22) . والاتجاه الى الإيجاز أكثر تأثيرا في السامع ، ولو نظرنا الى الجانب الآخر من الأدب ، وهو الشعر لوجدنا أن الشعراء يميلون الى الإيجاز لأسباب تصح في الشعركما تصح في النثر مثال ذللك :" قيل لبعض المحدثين مالك لاتزيد على أربعة واثنين . قال : هن بالقلوب أوقع والى الحفظ أسرع ، وبالألسن أعلق ، وللمعاني أجمع ، وصاحبها أبلغ وأوجز " (23) .

ونجد هذا الأمر واضحا عند الشعراء الفحول " قيل للفرزدق : ماصيرك الى (القصائد) القصاربعد الطوال ، فقال : لأني رأيتها في الصدور أوقع ، وفي المحافل أجول . وقالت بيت الحطيأة لأبيها : مابال قصارك، أكثر من طوالك، فقال: لأنها في الآذان أولج، وبالأفواه أعلق"(24) .

بل إن البليغ لايكون كذلك الإ إذا مال الى ايجاز اللفظ ، واطالة المعاني ، قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : " ما رأيت بليغا قط إلاّ وله في القول إيجاز ، وفي المعاني إطالة " (25) .

ومن الأمور المهمة التي تلفت النظر اهتمام التوحيدي بتاريخ ظهور التوقيعات فقد رأى انها قديمة ظهرت قبل عصره بوقت طويل فذكر توقيعا للإمام علي رضي الله عنه وأرضاه قال فيه : " رأي الشيخ خير من مشهد الغلام" (26) . ونجد ذكر تواقيع ا لكتاب والرؤساء ، ومن هؤلاء محمد بن يزداد الذي وقع الى عامل قائلا : " جعلنا إهمالنا لك ، وتعطّفنا ورفقنا بك مطيعة لمطلك ، وسببا لدفعك مالزمك ووجب عليك ، فامحّ ببدارك

إساءتك ، وبتعجيلك مدافعتك ، وأحضر حسابك مفصّلا في باقي اسبوعك ، ولا تحوج الى عنف بك واستقصاء عليك ، إن شاء الله " (27).

وذكر توقيعا لأعاجم مثل كسرى الذي وقع على كتاب رفع إليه مكتوب فيه :" إن الأمر كان خرج باختيار رجل للشرطة ، وقد سمي لذلك فلان . يحتاج لهذا العمل الى رجل في طباعه البغضة للأشرار واستقصاء أصول الأمول ، والغلظة على الظلمة، والرقة على الضعفاء، وهل رجل يختارلغير هذا العمل" (28).

ورفع الى كسرى أن النصاري الذين بحضرة باب الملك يقرفون بالتجسس ، فوقع : " من لم يظهر ذنبه لم تظهر منا عقوبة له " (29) .

ومن الأمر اللافت للنظر ان التوحيدي ذكر توقيعات لعامة الناس الذين لاشأن لهم ولا خطر في المجتمع ، بل إن في هذه التوقيعات إسفاف وتفكه ، قال :" كتب طاهر الى أبيه رفعه يستزيده فيها ويلومه في تقديم أخيه عليه – وكان أسنّ منه – فوّقع أبوه في ظهر رقعته : أكلت خراك بعود أراك ، ليت أباك أشبه أخاك "(30) .

وفي التوقيعات اشارة واضحة الى ثقافة الواسعة التي يجب أن يضطلع بها الموقع ، قال التوحيدي : " جلس ذو اليمينين يوما من الأيام للمظالم ، فعرض عليه رقعة رجل إدعى أجرة على رجل آخر ، وأحال المدّعي على رجل آخر ، فوقّع : يرجع الى الفصل الثاني من كتاب (كليلة ودمنة) فرجع الى ذلك الفصل فوجد فيه : أجرة الأخير على من أستاجره ، فعمل بذلك " (31) . والاحاطة بأمور الدين قال التوحيدي : " رفع رجل رقعة الى المنصور يسأله فيها بناء مسجد في محلّته ، فوقّع على ظهر رقعته : من شرائط الساعة كثرة المساجد ، فزدْ في خطاك تزدد في الثواب"(32) .

ويجب أن يتصف الموقع كذلك بالذكاء قال التوحيدي : " كتب رجل الى طاهر رقعة يسأله فيها ، فوقع له عليها : ماشاء الله كان ، فوقّع الرجل في أسفلها إن الله شاء المعروف ، فلما قرأها طاهر وصله "(33) . والله سبحانه شاء المعروف منذ خلق البشر ونشرهم في الأرض .

الملامح البلاغية في فن التوقيعات :

زحزت التوقيعات بملامح بلاغية رائعة جعلت التوحيدي يهتم بها ، ومن هذه الملامح وأكثرها حضورا في هذا الفن (السجع) ، وهو "توافق

الفاصلتين في الحرف الأخير "(34) ، ومن التوقيعات التي وردت في كتاب التوحيدي وورد السجع فيها توقيع الخليفة المقتدر قائلا : " مثلك باع العلوّ بالانحطاط ، وجليل المرتبة بالإسقاط وسأريك عند الاحتياط ، أنك بالخمول ذو اغتباط "(35) .

ولو عدنا الى النص وقرأناه لمرات عديدة بصوت عال ، لوجدنا في انفسنا شيئا ، فقد أثر فينا حرف (الطاء) لجهارته ، وانحباس جري النفس عند النطق به لقوة الاعتماد على المخرج (36) . ولو قرأ من وصل إليه التوقيع رسالة الخليفة بصوت خافت تكريما لها واحتراما لكاتبها لحبست أنفاسه ، ولم يستطيع اتمامها حتى يتنفس مرة أخرى ، فيخيل للسامع انه قد فزع من هول ما قرأ في الرسالة ، ولو قرأها بصوت عال ظهرت جهارة حرف (الطاء) ، وشدة الاعتماد على مخرجه ، فما أن يتم جملة ليبدأ بالأخرى حتى تنحبس أنفاسه من شدة ماعاناه في النطق ، ومن صفة حرف كذلك الشدة ، والقوة ، والاستعلاء : أي ارتفاع اللسان الى الحنك الأعلى عند النطق بحروف الاستعلاء .(37) . وهو مايفسر شعور الخليفة بالغضب ، وقوله إني " سأريك عند الاحتياط ، أنك بالخمول ذو اغتباط " من باب التعالي والترفع عن هذا الشخص .

ومن صفات هذا الحرف كذلك الاطباق ، أي انطاق اللسان الى الحنك الأعلى عند النطق بحروفه (38) مما يعطي لقاريء التوقيع شعورا مخيفا بعدم الانفلات مما هو مقبل عليه من العذاب . وفي حرف الطاء صفة القلقلة ، والحرف هنا جاء في آخر الكلمة في آخر الجملة ، وبهذا تكون القلقلة كبرى ، وهي أشد وأقوى من الصغرى (39) . فلو قرأ الرسالة ، ووقف عند نهاية كل كلمة في نهاية كل جملة على حرف الطاء اضطر الى القلقلة الكبرى ، وبهذا سيشعر بعظم الجمل الأربع التي ألقيت على رأسه كأنها صاعقة لا جمل . وبهذا يرتدع ويستشعر هيبة الرسالة من سطوة هيبة السلطان .

ومما ورد من التوقيعات وفيها السجع واضح قال التوحيدي : "وقّع علي بن عيسى الى ابن مرانة العطّار في قصّة يسأله أن يكلّم أمير المؤمنين المقتدر بالله حتى يصفح عنه : من تحقّق بالوزارء، وجالس الأمراء ، وداس بُسُط الخلفاء ، وماثل الكبراء ، وأمر ونهى في مجالس الرؤساء ، بعقل يسير

، وفهم قصير ، ورأي حقير، وأدب صغير ، كان خليقا بالنكبة ، وحريا بالمصيبة ، وجديرا بالمحنة أنا اتكلم إذا حضرني الكلام فيك بما يقرّبني الى الله تعالى "(40). فقد لفت نظر السامع الى التوقيع بحرف ثم انتقل الى حرف آخر وحرف ثالث طلباً للتنويع ومراعاة لجمال اللفظ .

ومن المميزات البلاغية الاخرى الاقتباس من القرآن ، وذكر توقيعات عديدة فيها هذا الملمح البلاغي الرائع ، قال التوحيدي : " كتب صاحب جيش عبد الملك بن مروان يخبره بكثرة من لقي من جيش الروم ، فوقّع إليه : (إن ينصركم الله فلا غالب لكم)(41)"(42) .

وفي هذه الآية دلالة واضحة على عظم سعادة الموقع ، فلم يجد في نفسه الا ذكر هذه الآية دلالة على سعادته بانتصار جنده ، وقوله : " ووقّع المنصور في قصة رجل ذكر أن أمير المؤمنين أمر بأرزاق ، وأن الفضل أبطأ بها : (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها)(43) " (44).

ونجد التضمين في التوقيعات ، وهو " أن يضمن الشاعر كلامه مشهور شعر غيره مع التنبيه عليه"(45). قال التوحيدي : " وقّع علي بن عيسى الى هشام العامل: قلّتك في نفسك ، وزريّ منظرك ، ودقّة حسبك ، وخمول نسبك ، وسقوط أدبك ، وموهن قّوتك ، واختلال مروءتك ، وضعف نّيتك ، يمنع من تقويمك والانصاف منك، ويحجب من تناولك بالعقوبة فقد نّجاك لؤمك ، وأطلقتك مقاذيرك ،فأنت كما قال الشاعر :

نجا بك لؤمك منجى الذّباب حمتهُ مقاذيره أن ينالا

ولست أرضاك لي عبداً ،ولو كنته لرأيت عنفك ، واحتقاراً لقدرك ، واستصغاراً لأمرك " (46) .

فقد استعان الموقع ببيت شعر قال الشاعر واشار الى ذلك في اثناء كلامه .

وقال التوحيدي " كتب علي بن عيسى الوزير في توقيع له : قد بلغت لك أقصى مرادك وأنلُتك غاية بُغيتك ، سامحتك مسامحة محابٍ لك معنيّ بك ، وأنت مع ذلك تستقلّ كثيري لك ، وتستقبح حسني ، فكيف وأنت كما قال رؤبة :

كالحوت لايكفيه شيء يلهمه يصبح ظمآن وفي البحر فمه

وإن تأملت حقيقية أمرك علمت أني عاملتك بما لا أجيب إليه محيرك ولا أعامل بمثله سواك "(47).

وغالبا ماتمتاز التوقيعات بحسن الانتهاء ، ويقال لهذا الأمر (حسن الختام) وهو" أن يجعل المتلكم آخر كلامه ، عذب اللفظ ، حسن السبك ، صحيح المعنى ، مشعراً بالتمام حتى تتحقق براعة المقطع بحسن الختام ، إذ هو آخر ماتبقى منه في الأسماع ، وربما حفظ من بين سائر الكلام لقرب العهد به " (48) . قال التوحيدي : " رفع الواقدي الى المأمون رقعة يذكر فيها ما عليه من الدين ، وقلّة الصبر، فوقّع المأمون في ظهر رقعته : أنت رجل فيك خلتان : السّخاء والحياء ، فأما السخاء فهو الذي أطلعت ما في يدك ، وأما الحياء فبلغ بك ما أنت عليه ، وقد أمرنا لك بمائة ألف درهم ، فإن كنّا أصبنا إرادتك فازدد في بسط يدك ، وإن كنّا لم نصب إرادتك فتماسك عل نفسك ، وأنت كنت حدثتني ، وأنت على قضاء الرشيد عن محمد عن اسحاق عن الزّهري عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الزبير : يازبير ، إن مفاتيح الرزق بإزاء العرش ، ينزل الله تعالى للعباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم ، فمن كثر كثر له ، ومن قلّل قلّل له . وقد علق آخر التوقيع – الحديث النبوي الشريف بذهن الواقدي فقال : وكنت أنسيت هذا الحديث ، فكانت مذاكرته إياي أعجب إليّ من صلته "(49).

وقد تكون التوقيعات قصيرة جداً فتقتصر على جملة واحدة " وقع المعتز تحت دعاء بإطالة البقاء : كفى بالانتهاء قصراً " (50) .

ومن الملامح البلاغية التي كثرت في التوقيعات التي اختارها التوحيدي (الترصيع) . وهو " توازن الألفاظ مع توافق الأعجاز ، أو تقاربها " (51) . مثال ذلك وقع ذو الرياستين الى مُستميح قائلا :" كن بالباب يأتك الجواب"(52) . فقد توافقت كلمتا باب وجواب . فجملة كن بالباب متوافقة مع يأتك الجواب . ومثل هذا توقيع جعفر على ظهر الكتاب قائلا :" إذا كان الاكثار أبلغ كان الإجاز تقصيرا ، وإذا كان الإيجاز كافياً كان الإكثار عيّاً "(53). فقد توافق الإكثار مع التقصير والإيجاز مع العيّ . ومثل هذا توقيع أحمد بن أبي خالد قائلا :" غررتنا بالله فحبسناك لله"(54). فقد توافق غررتنا مع حبسناك . ووقع ذو الرياستين قائلا :" واتر كتبك ، وأبرم الأخبار ، واستعن بالله على تزيين نفسك ، وأحملها على الصيانة تسلم

من قول العائب "(55) . فقد وازن بين واتر وكتبك وأبرم والأخبار ، والصيانة مع العائب . ووقع أيضاً : " قد استدللت بتضّجعك على مُداهنتك وبتقصيرك على ممالأتك ، وفي أقل مما أقرعك به ما يردع هواك عما أنت عليه "(56). فقد وازن بين استدللت مع مداهنتك ، وتقصيرك مع ممالأتك . ووقع كسرى " إنّي إنّما أملك الأجساد لا النيات ، وأحكم بالعدل لا بالرضا ، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر"(57) . فقد وازن بين الأجساد والنيات ، والعدل والرضا ، والاعمال مع السرائر. ومن ذلك توقيع الفيض في وزارته على ظهر رقعة معتذرٍ: التّوبة للمذنب كالدّواء للمريض ، فإن صّحت توبته كمّل الله تعالى شفاءه ، وان فسدت نيته أعد الله تعالى داءه " (58). فقد وازن بين (صحت) و(فسدت) و(توبته)و(نيته) و(كمل الله تعالى شفاءه) و(أعاد الله تعالى داءه) .

ومن الملامح البلاغية المهمة التي نجدها في التوقيعات التي اختارها التوحيدي (التقسيم) ، وهو أن يذكر متعدد ثم يضاف الى كل من أفراده ، ماله على جهة التعيين "(59) . قال التوحيدي كتب جوهر غلام المعزّ الفاطمي بمصر موقعا في قصة رفعها إليه أهلها : سوء الإجترام أوقع بكم حلول الانتقام ، وكفر الإنعام ، أخرجكم من ضغط الذّمام ، فالواجب فيكم ترك الإيجاب ، واللازم لكم ملازمة الاجتناب ؛ لانكم بدأتم فأسأتم ، وعدتم فتعّديتم ، فاتبداؤهم ملوم ، وعودكم مذموم ، وليس بينهما مزحة إلاّ الذّم لكم ، ولإعراض عنكم ، ليرى أمير المؤمنين رأيه فيكم" (60) ، فقد ذكر (سوء الإجترام) الذي كان من آثار أقسامه عليهم حلول الانتقام ، وكفر الإنعام ، والخروج من حفظ الذمام ، وذكرالتعدي الذي كان آثار أقسامه (ابتداء ملوم) ، و(عود مذموم) . ومما ورد فيه التقسيم كذلك توقيع كسرى قائلا لما استحثه وكيله على بناء قصر : " أنت ماشٍ والأوقات راكضة ، والعمل باعٌ ، والعناية فتر "(61). فذكرالمشي والركض ، وذكر الباع والفقر . ومن ذلك توقيع " المنصور في رقعة رجل سأله شيئا: آتاك الله سعة تصون عرضك وتقي دينك"(62). فقد كانت الشيء العام المذكور هو (سعة) أما أمام هذه السعة فهي (تصون عرضك) و(تقي دينك).

ومن الملامح التي نراها واضحة في التوقيعات التي اختارها التوحيدي في كتابه (البصائر والذخائر)تشابه الأطراف ، وهو " أن يعيد

الناظم لفظة القافية من كل بيت في أول البيت الذي يليه "(63). قال التوحيدي " وقع ذو الرياستين أيضا : نعم الشفيع في بقاء النعمة عليك حسن سيرتك ، واعتماد الصيانة والعفاف ، فدم على هذه الطريقة تبقَ لك النعمة إن شاء الله تعالى " (64) ، فقد وافق بين نعم في أول كلامه والنعمة في آخره ، ولايشعر السامع بهذه الموافقة إلا إذا أدام النظر الى التوقيع لسهولة مخرجه ، وابداع الموقع فيه.

وتوقيع ذي الرياستين الى ظاهر بن الحسن في أمر أنكره عليه :" يا نصف إنسان ، والله لئن أمرت لأنفذنّ، ولئن أنفذت لأبرمنّ، ولئن أبرمت لأبلغن"(65). فقد ناسب بين (أنفذن) و(أنفذت) وناسب (لأبرمنّ)، و(أبرمت).

ومن الملامح الأخرى هي رد العجز على الصدر في " أن يجعل أحد اللفظين المكررين ، أو المتجانسين أو الملحقين بهما بأن جمعهما اشتقاق ،أو شبهه في أول الفقرة ، ثم تعاد في آخرها . مثال ذلك توقيع ذي الرياستين الى قائد جيش : مارأينا صنعاً أحسن ، ولا نصراً أعزّ ، ولافتحاً أفضل من نصر الله إياك، وصنعه لك ، وفتحه عليك فتولّى الله أمرك بأحسن مما ابتدأك به "(66).

فقد رد عجز نصر الله على كلمة (نصراً) وصنعه لك رده على كلمة (صنعاً) ، ورد فتحه عليك على كلمة (فتحاً) . مما أضفى على التوقيع رونقا وروعة في الاداء والتعبير .

ومن الأمور وردت بكثرة في التوقيعات التي اختارها التوحيدي في كتابه (الطباق) : " هو الجمع بين لفظين مقابلين في المعنى ... قد يكونان اسمين ... أو فعلين ... أو مختلفين ... فيكون تقابل المعنيين ، وتخالفهما مما يزيد الكلام حسناً وطرافة " (67) . ومن ذلك توقيع ذي الرياستين عندما قال : " إنّ أسرع النيران إلتهاباً أسرعها خموداً ، فتأنّ في أمرك إن شاء الله تعالى " (68) . فقد قابل بين التهاباً وخموداً في ايراد فكرة سرعة التصرف التي يقوم بها الفرد بلا وعي ، وادراك لما يدور حوله .

وظهر الطباق كذلك في توقيع المقتدر قائلاً : "ولّيتك من عملي جليلاً ، وكنت حقيراً قليلاً ، مهيناً ذليلاً ، حصراً كليلاً ، فانصرف عليك اللعن طويلا" (69) . فقد طابق بين جليلا وحقيرا ، ولم يكتف بهذا بل

زاد في صفات الضد لكلمة جليلا التي وصف بها العمل ، فقال : قليلا، مهينا ، ذليلا ، حصرا، كليلا مما أعطى السامع انطباعاً بأهمية العمل الذي وصفه بالجليل من جلّه وجلالاً عظم فهو جليل ، وهو كل شيء عظيم أمره(70) . وهذه الكلمة وحدها كفتنا مؤونة ذكرصفات غيرها، وذكر كل تلك الصفات للشخص المذموم الذي ولاه عملا جليلا .

وقد تعدى الموقع الطباق الى المقابلة في التوقيعات كثيرة إذ أكثر من الكلمات التي طابق فيها ، ومن ذلك توقيع ذي الرياستين قائلا : " أجمل في الطلب تكلفك المقادير ماهو كائن . فما كان لك أتاك على ضعفك ، وما كان عليك لم تدفعه بقوتك" (71) .فقد طابق بين (لك)و(عليك) و(ضعفك) و(قوتك) بشكل رائع أضفى على الجملة رونقا وروعة .

ونجد الطباق كذلك في قوله ذاكراً توقيع ذي الرياستين " كلّ مصيبة عند سخطك جلل ، وكلّ نعمة عند رضاك محتقرة " (72). فقد طابق بين(مصيبة) و(نعمة) و(سخطك)و(رضاك) وكذلك بين (جلل) و(محتقرة) .

ومن الملامح البلاغية الاخرى الموازنة ، وهي : " تساوي الفاصلين في الوزن دون التقفية " (73) . وفي هذا النوع البلاغي روعة أداء تلفت نظر السامع الى ما يقول الموقع ، قال التوحيدي : " وقع المنصور : قد أمنت كل مذنب وشكرت كل بريء ، وجبرت كل وليّ " (74) .فقد وازن بين جملة (قد أمنت كل مذنب) ، وجملة (وشكرت كل بريء) ، وجملة (وجبرت كل وليّ) من غير أن تتوقف الأحرف في نهاية الجمل ، وهذا أعطى الموقع حرية أكبر في اختيار الكلمات في توقيعه من غير أن يضطر الى الالتزام بحرف سجع واحد .

وأورد التوحيدي توقيعا آخر وجدت فيه هذا النوع البلاغي قائلا : " وقّع يحيى بن خالد في رقعة رجل مليح الخطّ ، رديء الكلام ، الخطّ جسم روحه الكلام ، ولا ينتفع بجسم لا روح فيه " (75) . فوازن بين جملة (الخطّ جسم روحه الكلام) وجملة (لاينتفع بجسم لاروح فيه) في عبارة يظن سامعها أنه لايمكن أن يضيف شيئاً آخر الى الكلام لروعته وجودة سبكه .

كذلك نجد ملحماً آخر هو المواربة ، وهي :" أن يجعل المتكلم كلامه بحيث يمكن أن يغير معناه بتحريف ، أو تصحف ، أو غيرهما ؛ ليسلم من المؤاخذة " (76). ذكر التوحيدي أنه " قريء للمأمون توقيع بنقطة ، وذلك أن رجلا كان سابق الحاج ، فورد مرة بعدها ورد غيره ، وكتب قصة يطلب رزقه ، فلما قرأ المأمون وقع بنقطة ثانية تحت الباء فصار سايق الحاج "(77) . فهذا الحاج الذي كان دائما يسبق غيره فينال عطاء جزيلا تأخر هذه المرة فكتب يطالب برزقه ، ما يحصل عليه كل مرة ، ولايريد المأمون أن يجعل الباب مفتوحا بشكل غير منظم حتى لا يفلت زمام الأمور من يده بشأن مايعطي من الارزاق ، فوقع بان وضع نقطة تحت الباء ، فصارت سايق الحاج ، وبذلك تخلص مما أراده هذا الرجل من المطالبة بحقه بعد فوات الأوان.

ومن الملامح البلاغية الأخرى الاستتباع ، وهو الوصف بشيء على وجه يستتبع الوصف بشيء آخر ، مدحا أو ذما من ذلك :" رفع الى محمد بن عبد الله بن الطاهر في قصة أن غلاماً أخذ مع فتيان في صحراء ، فوقع : ما السبيل على فتية خرجوا لمتنزهم ، يقضون أوطارهم على قدر أخطارهم ، ولعل الغلام ابن أحدهم أو قرابة بعضهم " (79) . فالمفروض أن الخليفة سيعمل على توقيع أقسى العقوبة بهؤلاء الناس ، فإذا به ينظر الى الأمر بمنظور آخر ، منظور من يحسن الظن بالناس ، فهم شباب متفتحون للحياة خرجوا الى نزهة يقضونها على قدر أحوالهم ، وما يملكون وبحسب علو شأنهم ومكانتهم بين الناس ، ولابد أن هذا الغلام الذي معهم شخص قريب لأحدهم ولم يرد أن يفوت على الفتى متعة النزهة فأخذه معه ، وليس الأمرالآخر الذي خطر على بالهم ، وأرادوا ان يقنعوا ولي الأمر به فيعاقبهم على أمر لم يقترفوه .

وورد الجناس كذلك في التوقيعات التي لفتت نظر التوحيدي من الشائع من أدب عصره فنقلها لنا في كتابه (البصائر والذخائر) . وقع ذو الرياستين : " قد أعذرت إليك في التقدمة ، فألزم المحّجة ، وتوقّ لزم الحجة ، وتوقع حلول المجازاة ، إن شاء الله تعالى " (80) ، والجناس في كلمتي (المحّجة) و(الحّجة) وهو من نوع الجناس غير التام ، وهو ما اختلف فيه اللفظان في واحد ، أو أكثر من شروط الجناس التام الأربعة .

وورد الجناس كذلك في توقيع ذي الرياستين لما قال : " لاتجعلنّ توليتي إياك نظراً مني لك دون رجائي فيك للكفاية والغناء والنصحية ، فتنزلّ بك قدم تورثك الندم " (81) . فالجناس في قوله (قدم) و(ندم) ، وهو جناس ناقص حيث اختلفت الكلمتان بحرف من حروفهما ، ومن ذلك ايضا توقيع ابن الزيات الى عامل له : " توهمتك شهماً كافياً ، فوجدتك رسماً عافياً ، لامحامياً ولاوافياً " (82) . فالجناس في الالفاظ (كافياً) ، (عافياً) ، (وافياً) وهو جناس ناقص تغير فيه حرف واحد من حروف الكلمة .

وأخيرا لابد من القول انه بعد هذه الرحلة الممتعة في كتاب التوحيدي (البصائر والذخائر)، هذا الكتاب الموسوعي الرائع الذي يمتع قارئه ويفيده في الوقت نفسه ، وجدت أن التوحيدي قد أهتم بذكر التوقيعات، ففن التوقيعات فن أدبي رائع امتاز بأسلوب بلاغي تكثر فيه الملامح البلاغية التي تعتمد على سماع المتلقي لتثير اهتمامه بما يسمع ، وبذلك كان فن التوقيع فن أثار اهتمام المتلقين منذ القديم ، حتى أن التوقيعات جرت على لسان الخلفاء والامراء وعلية القوم فيها الايجاز الذي يجعل الكلام عالقاً في ذهن السامع، ثم يعتمد فيه المبدع على اساليب البلاغة التي يكثر فيها المعنى على حساب اللفظ ، وقد وصلت الى جملة أمور مهمة في التوقيعات التي اختارها التوحيدي .

- فقد كانت التوقيعات فناً يصدر عن الامراء والخلفاء أما التوحيدي فنقل لنا توقيعات على لسان أناس من عامة الشعب كانت توقيعاتهم تضم اسفافاً وكلاماً لايصح ان يقوله علية القوم.
- كان الطباق اكثر الفنون انتشارا في فن التوقيع و مما زاد ه أكثر المقابلة .
- تنوعت الملامح البلاغية التي وجدتها ماثلة في التوقيعات التي اختارها التوحيدي.

الهوامش

1- ينظر تاج العروس : مادة وقع .
2- ينظر لسان العرب : مادة وقع .
3- ينظر المصدر نفسه : مادة وقع .
4- ينظر تاج العروس : مادة وقع .
5- ينظر المصدر نفسه : مادة وقع .
6- تاج العروس : 360./22
7- تاريخ ابن خلدون : 437./1
8- كتاب الصناعتين : .193
9- ينظر تاريخ الأدب العربي ، السباعي بيومي : 421/2 وما بعدها .
10- تاريخ الأدب العربي ،د. عمر فروخ : 2/ .45
11- المصدر نفسه ، المكان نفسه .
12- الفن ومذاهبه في النثر العربي :15 .
13- ينظر م . ن : 19،80 ومابعدها .
14- ينظر م. ن : 106 ومابعدها .
15- ينظر المصدر نفسه : 194 .

16- تاريخ الأدب العربي : كارل بروكلمان : 2/.107
17- ينظر تاريخ الأدب العربي . العباسي الأول ، ابراهيم علي أبو الخشب : .116
18- فاطر : .2
19- البصائر والذخائر : 9/ .110
20- المائدة : .102
21- البصائر والذخائر : 9/ .116
22- المصدر نفسه : 6/ .232
23- كتاب الصناعتين :194.
24- م . ن : 193 .
25- م . ن : 194 .
26- البصائر والذخائر : 9/ 116.
27- م . ن : 177/9.
28- م . ن : 8 /201.
29- م . ن : 176/9
30- م . ن : 137/2
31- م . ن : 70/1.
32- م . ن : 18./2
33- م . ن : 26./1
34- جواهر البلاغة : .404
35- البصائر والذخائر : 5/.54
36- ينظر قواعد التلاوة : .30
37- م . ن : .32
38- م .ن : .32
39- م .ن : .36
40- البصائر والذخائر : 5/ 53 .
41- آل عمران : 160 .
42- البصائر والذخائر : 9/ 110 .

43- فاطر : 2.
44- البصائر والذخائر : 9/ 110 .
45- جواهر البلاغة : 416.
46- البصائر والذخائر : 5/61.
47- م . ن : 9/ 150 .
48- جواهر البلاغة : 421.
49-ينظر م. ن: 6/ 240.
50- م. ن: 1/76.
51- جواهر البلاغة : 406 .
52-البصائر والذخائر : 6/ 232 .
53- م. ن : 4/ 148.
54- م. ن : 6/ 175.
55- م. ن : 2/170.
56- م. ن : 2/170.
57- م. ن : 2/184.
58- م .ن : 6/221.
59- جواهر البلاغة : 378
60- البصائر والذخائر : 1/184.
61- م. ن : 2/185.
62- م . ن : 9/109 .
63- جواهر البلاغة : 391 .
64- البصائر والذخائر : 2/ 127.
65- م . ن : 2/131.
66- م . ن : 2/170.
67- جواهر البلاغة : 367.
68- البصائر والذخائر : 2/127.
69- م . ن : 5/54.
70- القاموس المحيط : مادة جلل .
71- البصائر والذخائر : 2/128.

72- م . ن : 170./2
73- جواهر البلاغة : 406.
74- البصائر والذخائر : 123./7
75- م . ن : 52./8
76- جواهر البلاغة : 408.
77- البصائر والذخائر : 117./9
78- جواهر البلاغة : 386.
79- البصائر والذخائر : 16./2
80- م . ن : 170/2 .
81- م . ن : 127./2
82- م . ن : 8/ 27.

المصادر والمراجع :-

- البصائر والذخائر ، أبو حيان التوحيدي ، علي بن محمد بن العباس (414 هـ)، تحقيق :
د . وداد القاضي، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، ط 4 ، 1419 – 1999.
- تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ، تحقيق مصطفى حجازي ، مطبعة الكويت ، بلا . ت .
- تاريخ الأدب العربي ، كارل بروكلمان ، نقله الى العربية د . عبد الحليم النجار ، دار المعارف ، مصر ، ط 3 ، بلا . ت .
- تاريخ الأدب العربي ، د . عمر فروخ ، الأعصر العباسية ، دار العلم للملايين ، بيروت – لبنان ، ط 3 ، 1980 .
- تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول ، أبراهيم علي أبو الخشب ، دار الفكر العربي ، دار النصر للطباعة ، القاهرة ، مصر، ط 1 ، 1966.
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، أحمد الهاشمي ، مطبعة السعادة ، مصر ، ط 13 ، 1383 – 1963 .
- الفن ومذاهبه في النثر العربي ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، مكتبة الدراسات الأدبية (19) ، ط 5 ، بلا .ت .
- القاموس المحيط ، الفيروز آبادي ، دار مكتبة التربية للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، ط 2 ، 1371 – 1952 .

- قواعد التلاوة ، د. قحطان عبد الرحمن الدوري ، فرج توفيق الوليد ، دار الحكمة للطباعة والنشر ، بغداد – العراق ، ط 3 ، 1411 – 1991 .
- كتاب الصناعتين ، الكتابة والشعر ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (395 هـ) ، تحقيق د. مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، ط 1، 1981 .
- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ، وفي عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، وهو تاريخ وحيد عصره العلامة عبد الرحمن بن خلدون المصري ، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان ، بلا. ت.
- لسان العرب ، العلامة ابن منظور ، دار الفكر ، مكتبة الحياة ، دار هاشم للطباعة والنشر ، بلا. ت.